القصص

قصة مصرية

الخبز الرخيص

... وفتح الفتى عينيه — وكان يغمضهما كأنه يحلم — وألقى نظرة أخرى على ورقة من ورق الرسائل الأزرق منشورة امامه. ولم يكن يدرى كم من الوقت مر عليه وهو على حالته هذه — امام مكتبه ، والقلم فى يده ، وعيناه مغمضتان ، ورأسه يحس انه يوازن كرة الارض ويدور دورانها.

واعتمد بجبينه على راحة يده اليسرى ، وأرسلها نظرة تائهة الى الفضاء الذى يمتد امام نافذته ، وأخذ يستعيد ذكريات ساعات قريبة:

تذكر انه كان جالسا يقطع ساعة من ساعات الفراغ والوحدة المملة بالقراءة والتفكير ، فسمع الجرس يدق خمس دقات — تتصل ثلاثتها الاولى وتقفوها دقتان منفصلتان — فأسرع الى الباب يفتحه ، وقد افترت شفتاه عن ابتسامة للوجه الذى سيطالعه . اذ كانت هذه الدقات سراً بينه وبين فتاته اصطلحا عليها ، رفقا بأعصابه التى لم تكن تتحمل ، حين يكون فى انتظارها ، أن يدق الجرس ثم لاتكون هى الطارقة.

دق الجرس دقاته الخمس ، ولكنه حين فتح الباب تقدمت اليه فتاة أخرى — لا عهد له بها — تبتسم ابتسامة ناقصة ، فحار فى تعليل هذا . ولم يكد يبدأ التفكير حتى تقدمت اليه صاحبته — وكانت تختفى وراء مصراع الباب المقفل — وهى تقول ضاحكة : « أقدم لك صديقتى فتحية » فمد لها يده يحييها ؛ ونظر لفتاته عاتبا وهو يقول : « ياشفية ! متى تدعين هذا العبث ؟ »

وجلسوا ثلاثتهم وجعل الفتى يسائلك ، تحدث كما هى عادته مع صديقته وصاحبتها ، الا انه كان يخيم على مجلسهم شىء من الفتور لم يكن يدرى له سببا . وكان يبدو على وجه الفتاتين كثير من التردد والانتظار ، ففترت رغبته فى الحديث وود لو يعلم ماذا تكون النهاية وكانت كلمات تحار على شفتى فتاته أمضها كتمانها ، فقامت وخطت خطوتين الى النافذة ، وأطلت منها وعادت الى حيث كانت جالسا وعلى محياها دلائل العزم والتصميم وقالت :

— حقى ! (وهذا اسم الفتى) هات ورقة وقلما !

— ماذا تصنعين بهما

— لاتسألنى !

وألقت نظرة الى صديقتها وتقدم لها هو ورقة من ورق الرسائل الازرق وقلما فقالت :

— اجلس هنا .

وأشارت الى المكتب فجلس وهو لايدرى ماذا يراد به . فقالت :

— أكتب ما أملى عليك (واخذت تملى)

٢و٥ متر كريب ستان أسود ، ٥ أمتار كريب جورجيت أسود . حذاء أسود رقم ٣٧ (أنيسيال) حرف (ل)

وقالت كأنما تحدث نفسها :

— يكفى حرف واحد يسمى أنا (وكان اسمها ليلى !)

والتفتت الى صديقتها قائلة : ماذا غير هذا ؟

وقبل أن تجيبها قالت وكأنما تحدث نفسها مرة أخرى ... كفى ! فرفع اليها « حقى » عينين حائرتين يسائلها ماذا تعنى فقالت :

— سوف آتى يوم الثلاثاء القادم فأجدك اشتريت هذه الأشياء . انى اترك الاختيار لذوقك — ثم قالت :

— سوف ترى كيف ابدو فى هذه الملابس.

فحاول أن يبتسم ، ولكن شفتيه لم تنفرجا ، وحاول أن يعلل مسلكها فلم يهتد الى تعليل . ترى ما الذى دعاها لان تطلب منه هذا ، وقد كانت ترفض أن يهدى اليها شيئا مخافة أن يسألها ذووها عن مصدره ؟ ثم هذه الطريقة التى طلبت بها ما طلبته . إنها لم تعجبه بل ومالنا لانقول إنها ساءته وأمضته ايما مضض .

وحاول أن يستبقيها حين همت بالرحيل ولكن الاعذار تسابقت الى شفتيها . . . وساءل نفسه — وهو يسير معها الى الباب يودعها وصديقتها — بماذا تراها تعلل مسلكها إن سألها عنه ؟ ولم يجد جوابا ، وانتهى الى أنها وضعت نفسها فى مأزق سوف لاتدرى كيف تخرج منه .

ووقف فى أعلى الدرج يتابعها بنظراته وهى تهبط ، وطافت برأسه

حكاية الغزال والثعلب فهم أن يصيح بها . لم لم تفكرى فى الطلوع قبل ورود الماء ؟ ولكنه ارتد عن هذا وعاد الى مكتبه يفكر

وهذا هو بعد فترة — لم يكن يدرى مداها — قضاها شبه حالم فى تأمل لم يخرج منه بطائل ، ثم إنه حين فتح عينيه وعاد بعض الشىء الى حالته الطبيعية تبين أنه كتب فى غير وعى على الورقة الزرقاء التى لاتزال منشورة أمامه — باللغات التى يعرفها — ابدا . . . ابدا . هذا لن يكون . . . ، ذلك بانه كان قد انتهى الى مايشبه التصميم على الا يلبى طلب الفتاة ، وعلى أن يقطع علاقته بها وان لم يكن يدرى سبب هذا على التحقيق .

وجاء المساء فتوفر الفتى صدر ليله على التفكير فى فتاته وكأنما زايلته نفسه وقفزت الى كتفه ، وصارت تسائله وتحاوره وتضحك منه ساخرة . قالت له نفسه :

— تريد أن تهجرها ؟ أتراك تعنى ماتقول ؟ أتراك تستطيع أن تنسى ؟

فط شفتيه وهز رأسه وأقفل عينيه وهو يقول :

— النسيان ؟ لقد جربته فى الماضى ونجحت التجربة فلم لا أحاول مرة أخرى ؟

— أية مغالطة ! انك لم تنس أبدا . لقد كنت تخدعنى وتتناسى .

ومع ذلك حاول هذه المرة أن تنسى . العينين الباسمتين دائما ، العميقتين اللتين لم تكن تمل أن تحدق فيهما ، والشفتين اللتين كانتا تفتران عن بسمات تسير على ضوئها أياما . . . والقبلات التى كنت تقول إنها تعوض كل مفقود وتأسو كل جرح ، وتعزى عن كل مصاب !

— كفى ! كفى ! دعنا من هذا !

— هيه ! لقد كنت ظننتك نسيت ! وفى الحق مالنا ولهذا ؟ أنت تريد أن تهجرها فهل بحثت عن سبب أطمئن اليه ؟

— كأنك لا تعرفيننى ! إنى أقتل قلبى ، ولا أجرح كبريائى .

— كبرياؤك ؟ ماذا مسها ؟

— لم أكن أظن أن فتاتى — كمن سبقنها — تريد أن تتقاضانى ثمن العاطفة كأن حنانى لم يكن ثمنا كافيا !

— أى سبب ؟ ! إنك لتتجنى عليها . لعلك تفىء الى الحق فتعترف انها نزوة تلك التى أصابتك .

— وماذا يهمنى ؟ أليست النزوة مع عطلها عن الأسباب سببا فى حد ذاتها ؟ وللنزوات أحيانا أسباب تجاهلها . قل لى ألم تكن تحب صاحبتك ؟

— لست أدرى . وانما كل الذى أدريه انى كنت أكون سعيداً بجانبها ، وان نظراتها كانت تسحرنى ، وأن بسماتها كانت تضىء ظلمات وجدانى .

— ولم لم تصل حياتك بحياتها ؟ ألم يكن هذا يكفى ؟

— كان ينقصنى أن أعلم علم اليقين انها تريدنى إرادة قوية جارفة تطغى فى نفسها على كل ماعداها

— انها تريدك . والا فما الذى دعاها أن تبقى على علاقتها معك ؟

— هيه ، كثيرات يبعن أنفسهن أو يعرضنها سلعة يتقاضين فى مقابلها خبزاً . وياما أرخصه من ثمن !

أنت تشك اذن ؟

— وأريد ان يخرج الشك بأن أراها تهزأ بكل شىء وتستبيح كل شىء فى سبيل ان تبقى على أنا

— أية أنانية ! وماذا يغريها بهذا ؟

— وماذا يضيرها ؟

— ماذا يضيرها ؟ إنها فتاة . ومن حقها أن تشك وأن تظن انك تريد أن تلهو بها وأن تلعب .

— اذن أنفض يدى منها !

— وتبقى هكذا فارغ القلب دائما ؟

— ذلك أجدى من أن املأه عاطفة قد تكون مسمومة فتقتله . . . وقلب فارغ خير من لا قلب !

وعاد الى نفسه أو عادت اليه ، فخفف كثيرا من ثورته على فتاته وعزم على ان يجيبها الى ماطلبت ، وأن يتخلى عنها فى رفق ، وأن تكون هكذا نهايته معها

ومرت سنتان . . .

وذات ليلة بينما كان يقفل نافذته لينام ، راعه السكون المخيم على الطريق ، وما هى الا لحظة حتى خرقت حجب الصمت دقات ساعة فى منزل قريب . . . تن . تن ، حتى أكملت إحدى عشرة دقة وهو فى مكانه ذاهل واجم . وان صوت الجرس فى الظلام والسكون ليدخل على النفس شيئا كثيرا من الرهبة والكآبة ، وهكذا أنسته هذه الدقات برنينها المكتوم نفسه لحظة او بضع لحظات فوقف فى مكانه يفكر على هذا النحو

هذه الساعة القت بحلقات من سلسلة الزمن الى ظلام الماضى وعمقه ، وهذا هو مبعث الكآبة التى تدخلها على النفس دقاتها فى السكون والظلام .

أهكذا تمر الساعات والايام ؟ هذا عام ثان يكاد ينتهى ولما تعد فتاتى ، ترى ماذا صنع الله بها ؟ انى لاتمثلها الآن وهى تهبط الدرج لآخر مرة فى خطوات غير متزنة . إنها لم ترفع عينيها الى . أترى لم تكن تفكر فى «الطلوع» مرة أخرى ؟ أم ان القدر الاعمى لم يكن انبأها ، وانما سارت واضعة ذراعها تحت ذراعه الى حيث لم تكن تدرى ؟ من كان يدرى ؟ . . حين القت بها المصادفة فى طريقى ، شعرت

إنى وجدت فيها الأجابة على نداء نفسى الذى كانت تهتف به منذ فجر الشباب . لقد وجدت فيها ربا أطفأ ذلك الهيام الى المجهول الذى كان يجعل العالم أمامى كرادى التيه اسير فيه على غير هدى .

وغابت عنى فعدت الى عالمى القديم صفر اليدين الا من ميت الآمال !

ومرت سنون ثلاث . . . وذات يوم كان (حقى) يسير فى شارع فؤاد فلمح اسم صديقه ابرديم . . المحامى ، على لوحته النحاسية — بين لوحات أخرى تحمل اسماء كثيرين اغلبهم اطباء — معلقة على باب العمارة ، وفجأة خطر له أن يزور هذا الصديق فى مكتبه .

ولم يكد يتخطى الباب الكبير حتى وجد فتاته . . . ليلى ! نعم هى كما كانت دائما . . . وجدها واقفة تتلى بقراءة البطاقات الموضوعة على صناديق البريد فى مدخل العمارة ، وكأنما كانت تنتظر احدا . والتقت نظراتهما ، وحار فيما هو فاعل ، ولكنه لم يدر الا وقد تقدم اليها وهو يقول :

ليلى — ألم تكونى يوم الثلاثاء الماضى ؟ كنت مريضة ؟ هذا هو عذرك الدائم .

وكان يوم الثلاثاء الذى يعنيه قد مرت عليه سنون خمسة ! ولكنه حين أخذ يدها بين يديه يشد عليها نسى أنه لم يرها طوال هذه المدة وهكذا شعرت هى الأخرى ، وكأنما هذه السنين قضياها كأهل الكهف نياما !

وأغمضت عينيها وكأنما أرادت أن تكر بالذاكرة الى هذا الماضى البعيد وقالت وهى تبتسم :

— كلا لم أكن مريضة ولكن حدث أن أمى خرجت معى ولم يكن فى امكانى أن أستصحبها فى زيارتى لك . قال :

— حاجاتك لاتزال فى درج مكتبى . كنت انتظر دائما دقات الجرس الخمس ، فأذهب لاقابلك بها على الباب .

لقد اشتريتها اذن ! لم أكن أحسب أنك تعتقد أنى كنت جادة فيما طلبت . . . هى صديقتى التى أغرتنى . . . تجربة لعاطفتك نحوى . ولكنى أخطأت فى السماع اليها ، وخفت ان أنا عدت اليك أن تعتقد انى انما أعود لاسألك ماطلبت

ودارت الدنيا امام عينيه ، وقال لنفسه « ما أكثر مايخطىء الانسان التقدير ! »

وفجأة رآها تتركه — وقد عراها ارتباك ظاهر — وتنظر الى الباب حيث وقفت عربة ، نزل منها شاب ناداها باسمها فهزت برأسها تجيبه ، ودارت بنظرها الى يمين المدخل منادية ياحقى !

وأصابته رجفة اذ سمعها تلفظ اسمه ، ولكنها كانت تنادى طفلا — فى نحو الرابعة من عمره — لم يكن الفتى يباله اليه . وأجابها الطفل متسائلا — ماما ؟

فمدت يدها الى الطفل ورفعت نظرها الى الفتى كأنما تسأله ان كان قد فهم شيئاً .

وركبت الفتاة والشاب والطفل العربة ، وانطلقت بهم ووقف . حقى ، يتبعها بنظره ويصغى لوقع اقدام جيادها على الارض ، ويسمعه دون كل ماعداه من ضجة الطريق الصاخبة ، حتى لم يبق منه غير صدى يرن فى الاذن رنينا

وحينئذ أحس كأنما بدأت الارض تميد . . .

مصطفى حمدى القوني

الى خراسان

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

من رحلة قام بها الأستاذ سنة ١٩٣٣ الى تركية والعراق وأفغانستان

الى بحر الخزر

قمت من طهران شمالا صوب بحر الخزر ، مسافة ستين فرسخاً أو نحو أربعمائة كيلومتر ، كانت المناظر فى النصف الأول منها مألوفة : ربى تتوسطها هوى من أرض مهملة ، وما كدنا نوغل فى النصف الأخير حتى زادت عقد الجبال فى صخرها الاغبر المنحل وغالبه من الجير الذى اسود بمضى السنين ، وكثرت الالتواءات الارضية وزادت طياتها وأخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوى على نفسه مرات متعاقبة فى وعورة لم نعهدها من قبل . بعد ذلك بدأت صفحة الجبال المعقدة تتغير معالمها اذ كساها الشجر القصير فى تفرق أعقبه تلاصق عاجل ، وما نشعر الا ونحن نوغل فى غابة كثيفة ذكرتنى بمناطق الغابات الافريقية ، وكنا بجانب وادى نهر يسمونه (النهر الابيض) يتلوى ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللانهائية ، وكان ماؤه آسنا اذ يفيض بالماء ابان الشتاء حين تكثر الثلوج التى تكسو تلك الجبال — جبال البرز — ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ماعهدناه فى ربى ايران المنفرة التى عريت عن النبت ، ونضبت مياه مسايلها . وكانت بعض الوهاد وما يزينها من قرى صغيرة أشبه ببلاد اسكندناوة وسويسرة ، على أن الشجر مختلف اذ لم أر للصنوبر من أثر حتى فى أعالى الذرى ، وكله من أشجار المناطق الحارة